

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى، التي كان لها التوجيه، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية غرست في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب، بل في قلوب كثير من الكهول بذورا من الشك والاضطراب.. تشككوا حتى في وجودهم، تشككوا في كل ما تواتر، واستفاض، وأصبح من قبيل البدهيات.. أن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة أو زعامة فكرية أو هتاف وتصفيق حاد، أن هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض، ولست أستغرب هذا الوضع، الذي، هو السبب الرئيسي والسر الحقيقي وراء حيرة الشباب..



الأدب الإسلامي في مواجهة «الادب»



هذه السطور منقولة عن كتاب «نحو التربية الإسلامية الحرة» الذي كتبه «أبو الحسن الندوي»، وقد استوقفتني طويلاً ورحت أتمعن فيها، وفي البداية تساءلت..

- متى بدأت هذه السنوات «الخمسون»؟
من البديهي أنها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وهزيمة إيطاليا وألمانيا، وسقوط الفاشية والنازية، واندحار اليابان، بعد انتصار من سمووا «الحلفاء» خلال النصف الأول من الأربعينيات، وما إن كفت المدافع والطائرات عن إنزال الموت بالبشر، حتى أصبح «الحلفاء» فرقاء، واشتعلت بينها حرب باردة، وإن كانت لا تقل ضراوة عما سبقتها، وبدلاً من أن يقيموا عالماً يعيش السلام، والتنمية، والرخاء، ويعرف لله سبحانه وتعالى حقه في أن يعبد، وأن يسبح بحمده، وأن تضيء كلماته وتعاليمه العالم كله لجأت الكتلتان: غرباً وشرقاً، إلى تقسيم البشر، وسلبهم كل ما يملكون، من خيرات الدنيا، وكان نصيب المسلمين أن يجردوا من كل شيء، وبالذات إيمانهم. في الشرق أعلنوا «أن الدين أفيون الشعوب»، وقالوا إننا مخدرون، وحاول الغرب أن يستثمر ذلك ويتاجر فيه، وفوجئنا بأكداس من الكتب والأدب من الطرفين، تقض مضاجعنا، وتفسد علينا كل شيء، وتجربنا إلى المشاركة في صراع، لا ناقة لنا فيه ولا جمل، وبدلاً من أن نغوص في أعماق الدين السمح، نستوحى منه أعمالاً، تفيد الناشئة في دنياهم وآخرتهم، إذا بنا ننساق مع هؤلاء تارة، ومع أولئك تارة أخرى، دون أن ننتبه إلى محاولاتهم الدائمة والدائبة لاجتذابنا بعيداً عما نحتاج إليه بحق وصدق.. وهرب الكتاب والأدباء والمفكرون إلى تلك الساحة، وكنا قبل الحرب منقسمين بين ثقافة أنجلوسكسونية، وثقافة فرانكفونية، ثم انقمسنا بعدها إلى ثقافة غربية وأخرى شرقية، ناسين أنفسنا وحقيقتنا، غافلين عن أن ذلك باعد مابيننا ومابين استيحاء الدين الحنيف فيما نقدم للناشئة والشباب، وكانت النتيجة حيرة ما بعدها حيرة، وتخبط ما بعده تخبط، لأننا لم

نسأل أو نتساءل..

- ما هو مكاننا الصحيح السوي من هذا الذي يجري؟ لماذا نعمل لصالح هذا أو ذلك، ولا نعمل لحساب أنفسنا؟!..

كان الذي يحدث إبان هذه الفترة - التي امتدت لنصف القرن - أنه ما يكاد يظهر مصطلح في الغرب - وفي الشرق أيضاً - حتى نلهث وراءه، ونترجم الأعمال التي ينطبق عليها «المصطلح» الوافد علينا، بل وكنا أحياناً نبحت في أعمالنا القديمة لعلنا نجد شيئاً، يتواءم مع التيار الجديد، ومع الابتكار الحديث، وإذا لم يحدث ذلك اتهمنا بأننا قد تخلفنا عن «العالم» لأنهم أصبحوا هم «العالم» أما نحن فإننا بلا وجود، وبلا هوية، ولا قيمة.. خاصة إذا لم تَعَوِّج ألسنتنا، وأفواهنا بنطق تلك المصطلحات وأسماء مبتكريها!! وإن هي إلا بضع سنوات ويأتي جديد، حتى أضحت المدارس الأدبية أشبه بعروض الأزياء، وعليها أن نستخدم أحدثها، سواء قدمت إلينا من باريس، أو لندن، أو واشنطن، وأصبح أدباؤنا «يحجون» إليها بحثاً عن «الحديث»!

«أدب» التغريب» و«التفريب» لا يصلح قط لديار الإسلام

كانت كلمة «الحديث» عندنا تعني الحديث النبوي الشريف.. وإذا بها تعني «التجديد» الذي نسعى إليه، تقليداً لهم، وتحولنا إلى «قروء» نستورد منهم وعنهم كل شيء، أدوات الطباعة، وما نطبعة عليها، كان البعض يترجم ويقلد انجلترا أو فرنسا، ثم صار يقلد أمريكا أو روسيا، ولم نعد «ديار الإسلام»، التي تأخذ من عالمها ما يمكن أن يثريها، وليس ما يذهب بفكرها إلى أدراج النسيان.. أليس ذلك هو ما صنعتة عواصمنا في «بيروت» وغير بيروت، وراحوا يصدرون إلينا صباح مساء ما يجربنا بعيداً عما يجدر بنا أن نفكر فيه ونعمل له.. ذات يوم كنت في فرنسا، وقال لي ناشر:

- هل تحبون «فرنسوا ساجان» إلى هذا

■ ■

لجأت
الكتلتان
شرقاً
وغرباً إلى
تقسيم
البشر
وسلبهم
كل
ما يملكون
وجردوا
المسلمين
من كل
شيء..
وبالذات
إيمانهم!



بقلم:

عبد القادر يوسف

■ ■

كنا نبحت

في

أعمالنا

القديمة

عن شيء

يتواءم مع

أي تيار

جديد

يظهر في

الغرب.

الحد؟

ضحكت وسألته: أي حد؟

قال: ظهرت لها رواية بالعربية قبل أن

تصدر بالفرنسية! وأذهلني الأمر، وسألته،

كيف كان ذلك؟

أجاب: لها رواية بدأت عمليات طباعتها،

وفجأة أضرب عندنا عمال الطباعة، وكانت

نسخة من البروفات قد خرجت من المطابع،

لا ندري كيف، ووصلت إليكم وإذا بكم

تصدرونها قبل أن تنتهي إضرابات عمال

المطابع!!

إلى هذا الحد، تغربنا.. بل إن رواية «مزرعة

الحيوانات» التي كتبها جورج أورويل

صدرت في ست ترجمات عربية.. بمساندة

ومساعدة من جهات أجنبية وعربية لأنها تدين

«الشيوعية» ولست أظن أن هناك كتاباً إسلامياً

قد لقي مثل هذا الاهتمام.. اللهم إلا ذلك الذي

يقول إن أبا ذر لم يكن ماركسياً، وقد أداننا

عمل روائي رائع هو «رحلات ابن فطومة» إذ

ذهب الرجل في رحلات إلى بلاد الأدغال، ثم

إلى بلدان الحرية - الغرب - ثم إلى أرض

«العدالة» - يعني الدول الشرقية - ووجد أن

لديها ما هو أفضل مما لدينا نحن في ديارنا:

ديار الإسلام، كأن صاحبها يقول لنا:

استيقظوا.. أصحابا.. أفيقوا.. ورأى بعضهم

فيما يقوله نقداً حاداً لحالنا ومآلنا، وأصبح

العمل ضده، بدلاً من أن نتنبه لما يقول،

ويحذرنا منه.. أدانوه به، مع أنه يديننا لأنه

يريد لنا البقطة.. ونريد لأنفسنا السبات العميق

والهروب، لا المواجهة.. ولقد أصبح بعض

الناشئة في بلادنا يلهون ويلعبون بالعروسة

والدمية «باربي» ونسوا «عرائس من الصوف

كانوا يلهون بها الصغار عن جوعهم وعطشهم

أثناء الصوم».. وتمادت «باربي» وغير باربي

إلى مناطق محظورة، حين وضعوا في بطنها

جنينا، تفتح الطفلة «السوستة» لكي تخرجه،

لتلهو به، واشتدت الحرب ضدنا إلى حد إطلاق

اسم «مكة» على ملهى ليلي يعج بالعاريات

والكحوليات، ولفوا لنا الملابس الداخلية من

متاجر اليهود في ورق يحمل الشهادتين،

استهانة بنا، واحتقاراً لشأننا.. ثم واصلوا ذلك

احتقاراً بأعمال أدبية تافهة مثل «آيات

شيطانية»، وغيرها مما يخرج على «الأدب»

بمعنييه، ويصل بنا الأمر إلى منتهاه حين يشرع

بعضهم في ترجمة هذا السفه البين، ذلك لأننا

أتحنا لهم الفرصة لغزونا بكل السبل، وبالذات

بالفكر والفن والأدب، لأن أعمالنا لم ترفع راية

«لا إله إلا الله» وأبت إلا أن تنصاع إلى

«التمزق» و«التشردم» و«الضياع» تقليداً لما

يفعلونه، وكان الجدير بنا أن نهذاً نفسياً

ونستقر اجتماعياً، في أعمالنا الأدبية، لو أنها

انحازت إلى «الله أكبر».. وألا يذكر الله تطمئن

القلوب».. قلوبنا في أعمالنا الأدبية ليست

مطمئنة لأن أبطالها لا يذكرون الله، ولا يعملون

بموجب شريعته الغراء.. وآمل ألا يتصور

بعضهم أنني أريد أعمالاً أدبية وعظيمة، لكنني

أريد أعمالاً يفوح عطر الدين من بين سطورها،

ويعرف أبطالها «الله» بدلاً عن الأصنام

الجديدة: كتاب أدب الغرب، والمرأة، والدولار..

نريد أعمالاً شامخة تؤكد أنه لا طريق غير

طريق الله، وقرآنه، ونبيه.. لكن أنى لنا ذلك

وأعمالنا تتحدث عن «الغربة» و«الوجودية»

وكل «موضة» جديدة في الشكل والمضمون،

تجعلنا نرى تراثنا ضائعاً ومتخلفاً، وقد عفى

عليه الزمن.

■ ■ الأدب الإنساني العالمي

تتعاطف معه، إلا إذا..

إن الناشئة في بلادنا قرأت على يد مآفون،

يزرع الدنيا في نفوسهم «إن الله خلق الدنيا

في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع»،

ويصرخ المؤمنون، وحين يريد مسلم مؤمن أن

يدين هذا، نجده يسب كُتّاب أدب الأطفال

جميعاً.. ماذنبهم، وهذا المارق يكتب ما كتب..

إنه يكتب لهم «إن سيدنا إبراهيم حفر بئر

زَمَزَم من أجل ولده إسماعيل».. ونستصرخ

المسؤولين عن هذا العبث، وإذا بهم يصمتون، بل

يتيحون له أن يستمر ليقول «إن الطبيعة قد أعطت للمخلوقات كذا وكذا... ونقول «لا حول ولا قوة إلا بالله».. ولأن وراءه من يساندونه ويعلون من شأنه مع ضحالة ثقافته، وتهافت كتابته، إلا أنه يظل يطل علينا مع الصباح بهذه العبارات النجسة، ولسنا نملك إزاءها إلا أن نقلب أيدينا في حسرة لما آلت إليه الأمور.. نحن لا نستطيع أن نحمي صغارنا من هذا الأفاق الذي يخفي هويته ودينه وراء قناع النقل من الكتب الإسلامية إلى حد أن أحدهم، أطلق عليه صفة «الكاتب الإسلامي الكبير» وما هو بمسلم، بل وصلت به الوقاحة إلى حد التقدم للحصول على جائزة إسلامية، بكتب نشرتها له هيئات تحارب الإسلام وتطعن فيه.. وما زال يعربد ويبذر في نفوس الناس: ناشئة وشباباً، وكهولاً، بذور الشك، وينفث فيهم سمومه، وما من أحد نلومه غير أنفسنا، وغير غفلتنا..

نعم، يتشكك هؤلاء، حتى في وجودهم، وليس هناك أيسر من ذلك إذا كان هناك من يقول لهم «إن الطبيعة هي التي تعطي الطيور أجنحتها»، وما إلى ذلك، وأستغفرك ربي إذ يترك مثل هذا القلم الثعباني، ويترك له الحبل على الغارب، ليطالع الناس في أكبر صحيفة يومية.. الأعجب، أنه يكتب كلاماً من لون آخر في صحيفة دينية أخرى، نفس القلم.. تصوروا: يكتب هنا للمسلمين، وهناك لغير المسلمين، ولا ضمير، فهو يكسب من هنا وهناك، يكسب رزقاً وشهرة، وزعامة فكرية.. بل يكسب أيضاً هتافاً وتصفيقاً حاداً، بل يصدر مئات الكتب، ليس فيها سطر واحد من عنده، وحين ينبو القلم في يده، يجد من يدافع عنه: إنها هفوة، ولا نعثر نحن على جهة واحدة تساندنا في نشر أعمالنا الدينية، التي تستمد مادتها من إيمان مطلق بأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.. بل قالتها علانية وبصراحة واحدة من لبنان: أنت أغرقت الأسواق بكتاباتك الإسلامية..

وتصعقني العبارة، وكلمة «أغرقت»، وكان ردي

- إنني لا أريد للناشئة أن تغرق في سوق الإلحاد، وأن «تتغرب» فكرياً.. أريدها ناشئة مؤمنة.. بالله، والدين، والوطن.. وقالتها لي مسئولة كبيرة:

- هل اتجأهك هذا بحثاً عن سعة الانتشار؟ كان ردي: ياسيدي، ما من كاتب حاول أن يعرف الناشئة بأدب العالم كما فعلت.. لقد فتحت لهم نافذة على الآداب العالمية الرائعة والفريدة.. كما فعلنا أيام المأمون.. لكنني لا أنقل إليهم إلا ما هو إنساني، رفيع المستوى، ويتفق مع قيمنا.. ولا أخشى عليهم منه، لأنه يتسق مع «إسلامياتي» ويسايرها، ويواكبها.. لن أغلق الباب قط في وجه الأدب الجميل.. لست زارعاً للشك، بل للإيمان.. لست واضعاً إياهم في «حيرة»، بل أسعى لاستقرارهم الاجتماعي والنفسي.. ولا أرغب غرس «تناقض» بينهم وبين العالم: لقد جاء الإسلام لكل الناس، للعالمين، ولخير البشر، لذلك أضع بين أيديهم مايزيل كل تناقض، وما يحقق كل الاستقرار.. أحدثهم عن زهد المسلمين.. وعن مال المسلمين.. وعن عدل المسلمين.. وعن.. وفق منهج يستهدف المزيد من الإيمان بالعقيدة، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأركان الإسلام وسيرة الرسول والصحابة، والأنبياء والصالحين، وعن القيم الإسلامية الرفيعة، التي تساند الخير والصدق والأمانة، وتنبذ الشر والحق والكذب.. وصولاً إلى الحضارة الزاهرة التي صنعها المسلمون للإنسانية قاطبة، والتي أخذوا عنها ليصنعوا حضارتهم.. وأنا على يقين بأننا سوف نصنع بالإسلام الحضارة القادمة..

•• أدبنا الإسلامي للناشئة
من أجل خير الدنيا والآخرة

كيف يشك من يقول «لا إله إلا الله»؟
كيف يضطرب من يتلو آيات الله ويقرأ

■ ■

أتحنا
للغرب
فرصة
غزونا بكل
السبل
وخاصة
بالفكر
والفن
والأدب.

■ ■

لم نجد من
يساندنا في
نشر
أعمالنا
الأدبية
التي تستمد
مادتها من
إيمان مطلق
بوحداية
الله،

ورسالة

محمد ﷺ

■ ■

أنا على
يقين بأننا
سنصنع
بالإسلام
الحضارة
القادمة.

■ ■

الناشئة
الذين
يقرؤون
أدباً رفيع
المستوى لن
ينتابهم
الشك
والاضطراب
.. وهؤلاء
لا خوف
عليهم.

قرآنه؟

كيف يحتار المسلم المؤمن والطريق واضح
مضيء أمامه؟ نعم، هم يكيدون لنا، من خلال
أفكار يسلطون عليها الأضواء ملونة مزركشة،
لتبهر منا العيون بعض الوقت، لكن مع مضي
الزمن نكتشف أنها زائفة، زائلة، وتبقى كلمة
الله، جل جلاله.. ولن تضل السبيل إذا نحن
وضعناها نصب أعيننا، واستوحينا منها ما
نكتبه للناشئة، والشباب.. ولست أنسى حكاية
ال خليفة الذي أراد أن يعرف حال «بلد» فأرسل
اثنتين من رجاله، أحدهما مؤمن ذهب يبحث عن
ذلك في بيوت الله، والآخر مارق راح، إلى
المواخير، وعاد كل منهما يحكي من زاويته..
الأول يقول: إنهم طيبون أخيار، تمتلئ بهم
المساجد وتعمر، والآخر يتحدث عن مروقهم،
واقبالهم على الشر.. والحق أن الناس فيهم،
وفيهم.. والناشئة والشباب الذين يقرؤون أدباً
رفيع المستوى لن ينتابهم الشك والاضطراب
والحيرة، وهؤلاء لا خوف عليهم.. أما رواد
الأدب العاري، من الأعمال البوليسية، والكتابات
الرديئة فهم الذين سوف يعانون من مشكلات
العصر، وهي بلا حصر..

ورب قائل: هناك من يصل من الشك إلى
اليقين، ونقول: ليكن، وباب التوبة مفتوح، لكننا
بحاجة إلى مؤمنين يزدادون إيماناً، وتقاة
يزدادون تقوى، وذلك هو طريق الرشاد، إذ أننا
مع الفئة الأولى يضيع وقت قد يطول، ضرباً
في بيداء الجهالة والشك، والاضطراب والحيرة،
ونحن بحاجة إلى من يختارون سبل الإيمان،
ويكرسون أنفسهم له، وما من رغبة لنا في
عمل أدبي بوليسي، يختصر الشر على مدى
صفحاته، ويعاقب الشرير في سطور أخيرة..
إننا نرغب في أعمال رفيعة المستوى، يعلو فيها
المؤمن درجة، بعد درجة، وصولاً إلى ذروة
يحقق صاحبها فيها ذاته، وتنتصر صفاته
الخيرة على كل صنوف الإغراء، والبغي، وما
إلى ذلك من سلبيات.. ذلك هو مانريده

وستهدفه، لهذا نضيق صدراً بأعمال تريد أن
تقول لنا: إن «الإنسان» هو كل شيء، وأن
«العقل» وراء كل إنجان، وأن.. وأن.. غافلين عن
خالق الإنسان، ومبدع العقل ذاته، والذي يقول
للشيء: كن، فيكون، أينبهرون بمخلوق،
وينسون «الخالق» سبحانه، وغفرانه لنا على
أساليب يبتكرها مخلوقاته، فنذهب من ورائها،
لتضللنا، بينما أماننا من يمسك بيدنا ويهدينا
سواء السبيل، ويضيء لنا الطريق الذي يقودنا
إلى خير ما في الدنيا، وما في الآخرة.

ذلك هو لون الأدب، الذي نرتضيه للناشئين
والشباب، سواء صدر في الغرب أو الشرق، في
الشمال أو الجنوب.. كلها أرض الله، غير أن
فيها من يأخذنا بعيداً عن الطريق السوي،
بمغريات، يجدر بنا أن يكون لدينا من القو
والعزيمة ما يجعلنا نرفضها.. وفيها أيضاً من
يدلنا عن حقيقة الحياة على هذه الدنيا الفانية
ومايسر لنا السبيل إلى الحياة الأبقى،
والأخلاق، والتفكير في الثانية ثواباً وعقاباً، هو
الذي يجعلنا نمضي على الصراط المستقيم في
الأولى.. ولست أنسى ليلة في بغداد في
السبعينيات، كان معي مجموعة من العاملين في
مجال أدب الأطفال، يريدون أن يثثوني عن
الكتابات «الدينية» اكتفاء بالفكر القومي، وظللنا
نتجادل إلى الصباح، دون نتيجة، وكانت
عبارتي الأخيرة لهم: لنترك هذا للزمن!

وامتد بنا الزمن - بحمد الله - لكي يطلبوا
مني أن أكتب لهم «عملاً دينياً» بعد مرور
سنوات طوال، كان أجدر بنا أن نستثمرها..
نحن نبتغي وجه الله، بما نكتبه للناشئين.. لا
سعيًا وراء المال، أو الشهرة، أو الهتاف، أو
الزعامة.. فكل شيء زائل إلا وجه الله، ونحن
نستهدف فيما نكتب أن نضع أقدام الناشئة
على طريق الإيمان بالله، ورسله، وكتبه،
وملائكته، واليوم الآخر.. سدد الله على النور
خطانا.

قصة

تاريخية



بقلم الدكتور:

محمد رجب البيومي

نورجه.. أمبراطورة الهند

توافد الحجاج على بئر زمزم، يحاول كل حاج أن ينهل جرعة تروي ظمأه، وتشفي جسمه، ولكن رجالاً أسمر الوجه، واسع العينين، أسود اللحية، كان يحمل معه ثوباً من القماش الحريري الأبيض، وهو لا يني يأخذ من ماء زمزم، وينضح عليه، فعجب الناس من أمره، ومضت مدة طويلة والرجل ينتهز فرصة انقضاء الزحام، ليوصل رش الثوب الحريري الأبيض بالماء، حتى غسله غسلاً، جعل الماء يتساقط منه في كل ناحية، والثوب جديد قشيب لا يستدعي التنظيف، ولو كان في حاجة إلى الماء لكان في غير زمزم ما يغني، فهي للشرب لا للغسل، فتقدم إليه حاج يستخبره عن صنيعة، فقال له:

ما اسمك ومن أي البلاد؟ فاجاب الرجل أنا منصور الهندي.

- إذن أنت من الهند

- نعم.. فقال الحاج: وماذا تصنع بهذا الثوب، فتفرس فيه منصور متطلعا، وقال له: إذا أردت أن تعرف ما أصنع، فدعني أسألك أتعرف الأمباطورة نورجهان؟

فقال الحاج: أمباطورة الهند السابقة، أي الناس لا يعرفها، وقد سار ذكرها في كل مكان!

قال منصور: هذا الثوب الحريري ثوبها، وقد اعتزمت أن تغسله من ماء زمزم ليكون كفنها يوم تموت! وأرسلتني لأغسل الثوب أولاً، ثم أحج ثانياً، ولولا أنها تكفلت بنفقات الحج ما استطعت زيارة البيت الحرام!

قال الحاج: وماذا يصنع ماء زمزم إذا غسل به الكفن، لن ينفع الميت غير عمله. فعجل منصور يقول:

هي تعرف ذلك، فقد جالست العلماء، وحفظت القرآن، وروت الحديث الشريف، ونظمت الشعر، وناقشت الفقهاء في أدق مسائل التشريع، ولكن عاطفتها أوحى لها بهذا الصنيع؟

وقاطعه الحاج قائلاً:

تقول إنها نظمت الشعر؟ إن فكرتها هذه التي بعثت بك لتغسل الثوب بماء زمزم فكرة شاعرة ذات إحساس! وليست فكرة عالمة فقيهة تحفظ القرآن وتروي الحديث، وما فعلته بدعة مردودة سوسها لها شيطان الشعر، الذي يبدو أنه يسيرها في شئون حياتها

وهنا قال منصور:

لقد ذكرت أن حديثها قد سار في كل مكان، وإذن فالتاس يعرفون أنها كانت أمباطورة تملك الأمر والنهي، وتدير

شئون البلاد، وتناقش الولاة والوزراء، وتضع قوانين الدولة، وفق الظروف والملابسات، ومثل هذه السيدة الحازمة المتيقظة لن تكون.. مجرد شاعرة تخضع لأهوائها.

قال الحاج: شوقتني لحديثها، فهل أدعوك لتناول الغداء في خيمتي لأسمع من أخبارها ما يمتع ويروق! هيا هيا

وانطلق الرجلان إلى مكان الخيمة القريب، ولم يمهل منصور صاحبه، إذ بدأ يقول في اهتمام:

إن الأمباطورة لم تخترنني دون تجربة، فقد خدمت في قصرها عشر سنوات، وعرفت لدي أمانة القول والفعل، وكان آخر حديث لها معي أن قالت: لن أأتين سواك على غسل الثوب من ماء زمزم، فقد عرفت أمانتك، وأخشى أن أبعث غيرك، فيغسل الثوب بماء آخر.

فقال الحاج: وإذا كنت قد خدمت في القصر عشر سنوات، فأنت تعرف من تاريخ نورجهان، ووقائعها المعلومة والمجهولة ما لا يعرف الناس، وستتناول الطعام الآن مع من يرافقني في الرحلة إذ جئنا من سمرقند، لنسعد بزيارة بيت الله، ثم مالبت أن دخل الخيمة حاجان يلبسان ملابس الإحرام، فصاح صاحب الخيمة: ها هما ذان رفيقاي، والتفت إلى منصور وقال: وهذا ضيفي من الهند، فأعدا الطعام لنأكل ثم نسعد بحديثه، وإنه لطريف!

وفي لحظات قدمت المائدة حافلة بالطعام، ورأى منصور من حفاوة القوم به ما آنس نفسه، وأمتع وجدانه، إذ حرص كل من الثلاثة أن يختار له أحسن ما أمامه، حتى

تراكم الطعام دونه، فصاح بهم: رفقاً رفقاً، فأنا واحد وما أمامي من الطعام كاف لعشرة من المنهومين! فقال الحاج: كل يا أخي كي لا تتعب من حديث نورجهان! إذ تسري العافية في جسمك فينطلق اللسان! قال منصور: نحن ضيوف الله في هذا المكان، وقد أنست بكم أنسا كاد ينسيني أهلي، وليست المائدة هي التي سببت فرحتي بكم، ولكن سماحة الوجوه وبشاشة الثغور، وصدق المروءة، وكريم النخوة مما جعلني أتأكد أن الزمن لا يزال عامراً بالكرام!

قال الحاج: نريد أن نتحدث عن نورجهان لا أن نتحدث عنا!

فبادر منصور يقول: وهل أجيد غير الحديث عن مليكتي نورجهان! ثم التفت إلى الرفيقيين القادمين سائلاً: هل تعلمان عنها ما يعلم أخوكما؟ فقال الحاج: دعك منهما رتحدث! فقال منصور:

لا أدري بماذا أبدأ، فقد حفلت سيرتها بغرائب الأحداث، وأول ما أعرف من أمرها، أن والدها كان من وزراء فارس الكبار، ثم غضب عليه مولاه، فهاجر إلى الهند معدماً لا يحمل معه غير ملابسه، مع أسرة تتكون من زوجة وولدين، وفي الطريق ولدت له طفلة رائعة الطلعة وبعض الناس يقولون إنه تركها في الطريق، ليأخذها من يستطيع أن يقوم بتربيتها، لأنه معدم لا يملك قوت يومه، ثم جاء من حملها، وتقدم سائراً إلى خيمة كبيرة يجلس بها بعض المسافرين، فصاح بهم، هل فيكم من ترضع هذه الطفلة بأجر معلوم، فهاجت عاطفة الأمومة، في نفس والدتها، فصاحت هي ابنتي، فقال الرجل وكان تاجراً كبيراً.. ولم

تركبتها في الصحراء هكذا؟ فبكت الأم، وتدخل الوالد فقال في رنة أسف، إنه خرج من بلده مهاجراً لا يملك درهماً واحداً، ومعه امرأته وابناه فولدت هذه في الطريق، فقلنا لعل الله يبعث إليها من يستطيع الإنفاق عليها من القادرين!

فتعجب السمرقنديون الثلاثة، وكان أحدهم، ذا مظهر يدل على ثقافة واطلاع، واسمه يونس، أما الآخران فهما عثمان ومحمود.

قال يونس: يخيل إلي أن هذه الرواية مكذوبة، حاكها خصوم الأمبراطورة تحقيراً لشأنها، إذ لا يعقل أن رجلاً كان يتولى الوزارة يخرج من فارس إلى الهند مع أسرته دون أن يكون معه درهم واحد، ثم لا يعقل أن يقدم أبوان على ترك وليدتهما في العراء، انتظاراً لمن يتقدم لرعايتهما! إن الحيوان المفترس يقاتل دون ما يلد، فهل يحدث هذا الشذوذ الأحمق من ذي مستوى رفيع.

تطلع منصور إلى يونس وقال: كلامك معقول ياسيدي، ولكني سمعت ما رويت، كما سمعت من يقول إن الوزير قدم إلى الهند بتوصية من أحد الكبراء في فارس، قدمها للأمبراطور «أكبر» فعينه كاتباً في قصره، واختبره عن كُتب فرأى لديه من دلائل الحنكة وعلائم الإخلاص ما أعجبه، فارتفع به إلى درجة ضابط بالقصر الأمبراطوري في دلهي، وعين زوجته مدرسة تختص بتعليم إحدى الأميرات في القصر!

قال يونس: تلك هي الرواية المعقولة، فماذا جد بعد ذلك للطفلة الصغيرة؟

قال منصور: لقد سماها أبوها «مهر

النساء» وباشر تثقيفها بنفسه فحفظت القرآن، ودرست العربية والفارسية والأوردية، ونبغت في الآداب الفارسية حيث درست دواوين المشهورين من شعراء فارس العظام، وأعجب مافي اتجاهها أنها حذقت أساليب الفروسية، فأتقنت ركوب الخيل وطعن الرماح، وامتشاق السيوف، ورمي النبال، أما جمال صورتها فكان أول أسباب ارتقاؤها السريع، حيث ملكت كل لباً! وكان منصب والدها يتيح لوالدتها أن تحضر حفلات القصر مع ابنتها ذات الصبا الفينان، والروعة الخالصة! وكانت نفسها الشاعرة تدفع بها إلى الانفراد في حديقة القصر الأمبراطوري، تاركة من يسمرن من السيدات في المقاصر والردهات، لتأمل جمال الزهر، ونضرة الشجر وترقرق الماء في الغدران، وتصغي إلى الطيور المغردة، وتستنشق الأريج العاطر، ويبيدها كتابها، حتى إذا رأت ما يدل على انتهاء الحفل سارعت إلى والدتها لتصبحها عائدة، كما رافقتها قادمة! وفي أصيل يوم ما، نزل الأمير سليم، أكبر أولاد الأمبراطور إلى الحديقة، يرتادها منفرداً، فرأى «مهر النساء» تقرأ في كتابها، وقد خلع الجمال عليها من الفتنة مالا مثيل له فيمن شاهده فتسمرت قدماه مأخوذاً بما يرى، ثم تقدم يسألها عن اسمها ومن جاء بها إلى حديقة القصر، وأطال السؤال، فوجد من دقة الإجابة، وحلاوة التعبير، وأدب الخطاب ما ملك لبه، فرق صوته، وقال وكأنه يتوسل:

لي رجاء واحد لديك يا أميرتي:
فاستدركت تقول: لست أميرة يا مولاي، ولكنني بعض رعيتك المخلصة،

قال الأمير: لي رجاء واحد، وهو أن تحضري كل احتفال يقام في القصر، ويكون مجلسك تحت هذه الشجرة! وأدرك حرج موقفها فتركها في شوق، وانطلق إلى والدته مهموماً يكتم من أمره ما يخاف أن يظهر، فيلحق الفتاة وأباها ما يسوء، لأنه يعرف حزم والده الأمبراطور ولن يسمع له بالزواج إلا من ابنة ملك في الخارج، أو كريمة أحد أعمامه من أمراء البيت الأمبراطوري، فأين من هاتين ابنة غريب واقد من فارس ليعمل ضابطاً بالقصر!

ثم لم يستطع مغالبة وجده، فكان ينتظر حفلات القصر في لهف زائد، وقد أدرك حرص الفتاة على لقائه، وعدم تخلفها عن مواعده، أنها تضرع له من الحب ما يعلن لها، دون أن تفصح بلفظها مكتون قلبها، لأنها مع سننها الصغيرة عاقلة أريية، تدرك أنها أمام ولي العهد، وتعرف وضعها من مثله! ولكن جمالها الصارخ كان يأخذ عليه سبيله، وليس جمال الصورة فحسب، ولكن جمال المحادثة، ورقة الخوار، وشفافية النظرة، مع كمال السمات، ورزاق السلوك.

ولابد للعطر أن يفوح، فقد أدركت والدة الأمير اشتغال فكره، وأعدت من يراقب حركاته عن بعد، حتى جاءها النبأ، فعرفت خطورة مسلكه

وبادرت



بإعلان الأمر لوالده الأمبراطور «أكبر» مؤكدة أن الفتاة المسكينة لا ذنب لها، فالأمير يلاحقها دون أن تستطيع الخلاص، وأمها وأبوها لا يدریان من أمر الأمير شيئاً، ولو دريا ما استطاعا أن يتفوها أمامه بلفظ! قالت الأم ذلك، لأنها تعرف بطش زوجها وعنفه، فقد يهيم بعقاب الأسرة جميعها، أو بما هو أقسى من العقاب، وهو الاستئصال كما يفعل بأعدائه!

ولم يهدأ «أكبر» إذ كان في نيته أن يعقد للأمير على أميرة من بيته، وكان يعجب بضابط فارسي من ضباط القصر لشجاعته النادرة، فمُنحه لقب «شير أفكن» أي مصارع الأسد وعينه والياً على محافظة «بردوان» على أن يتزوج «مهر النساء» لفوره، ويرحل بها إلى ولايته البعيدة عن دلهي من الغد، وأسرع فنادى «غياث الدين» والد الفتاة، لينفذ الأمر لساعته، فقد اختار لابنته أقرب ضباط القصر إلى نفسه، وجعله حاكماً على محافظة كبيرة! وهل لمثل «مهر النساء» أن تطمع في أكثر من حاكم إقليم!

وتم الأمر الفوري، وتحطم قلبان! قال عثمان: الحق أني أقدر مسلك الأمبراطورة الأم، لأنها حين أرادت أن تحول بين الأمير ومن تعتقد أنها دونه في مرتبته، أكدت للزوج الباطش أن الفتاة لا ذنب لها، وأن ولدها هو الذي يتعقبها، ولو كانت الأمبراطورة ذات رعونة حمقاء! لبرأت ابنها وألقت بالتبعة على الفتاة زاعمة أنها أغرته بما تملك من جمال! ولا عليها أن تمتحن الفتاة وأسرتها أشق امتحان على يد متسلط جبار!

فرد يونس يقول: هذا صحيح لا شك فيه، ولكن لا يغيب عنا أيضاً

شرف المسلك الذي انتهجه الأمبراطور، فقد كان في وسعه بعد أن عرف أن الفتاة لا ذنب لها أن يأمر بطردها مع أسرتها في أقل من طرفة عين، دون أن يستشعر أدنى خطأ، وحسب الأسرة أن نجت من عقابه، ولكنه اختار للفتاة زوجاً كفئاً، هو أشجع فرسانه وجعله حاكم ولاية كبيرة، ولم يكن والد الفتاة يحلمان لها بمثل هذا الزوج، إنني أضيف الإعجاب بالأمبراطور إلى الإعجاب بالأمبراطورة فكلاهما في موقفه الحاسم عاقل رزين!

قال محمود لمنصور: ثم ماذا؟ أتمم حديثك فنحن مشوقون!

قال منصور: تعاقبت الأحداث، ومات الأمبراطور أكبر، وخلفه «سليم» متسمى باسم «جهانجير» فلم يفتر عنه شوقه إلى مهر النساء، وأخذ يعمل الحيلة في الاقتران بها بعد أن زالت عقبة أبيه، وأمثال هذه الحيل الخفية لا تُعلم كما وقعت، لذلك يتكهن الناس حولها، فتختلف الروايات، وتتناقض المسائل، ولا يستطيع أحد أن يجزم بشيء على وجه قاطع.

فرد يونس: اذكر لنا بعض ما قيل، وربما يمكننا أن نرجح، فقال منصور: قيل إن جهانجير حاول أن يسترضي الزوج «شير أفكن» فمناه بمنصب كبير إذا بادر بطلاقها، وأرسل إليه حاكم البنغال قطب الدين كي يلين قناته دون ثورة منه يتعاملها الناس، ولكن الزوج فوجيء بما لم يتوقع، وأراد قطب الدين ملاينته، فتطور الحديث إلى منافشة غاضبة صارخة من الزوج، ثم رفع سيفه وهوي به على رأس قطب الدين، وكان معه حراسه وحاشيته فسارعوا بالانتقام العاجل، فهوت رقبة

الزوج أيضاً، وخلا المكان.

قال يونس: هذه رواية، فما الرواية الأخرى؟ فقال منصور:

لما مات أكبر، لم يخلص العرش لسليم بسهولة، حيث عارضه إخوته، كل يطمع أن يكون أمبراطوراً، ودارت معارك أهلية بين الإخوة المتصارعين، وقد انضم «شير أفكن» إلى غير سليم، وبعث بجنود ولايته لتقف مع خصومه، فلما انجلت المعارك عن انتصار سليم، نكل بخصومه جميعاً، ومنهم «شير أفكن» وبذلك خلا المكان.

فهز يونس رأسه قائلاً:

أرى هذه الرواية أقرب إلى الصواب، إذ لو صحت الرواية الأولى لغضبت مهر النساء كرامة لولديها من شير أفكن، وما قبلت أن يعرف الناس أن زوجها راح ضحيتها هي، لأن الإشاعات ستشركها في المؤامرة وتجعلها غادرة بمن صانها وتمسك بها حياً وإخلاصاً.

وهنا سأل محمود: وهل زفت مهر النساء إلى الأمبراطور سريعاً بعد انقضاء العدة!

فقال منصور: كلا مكثت أربع سنوات دون اقتران، وجهانجير يراسلها متوسلاً ضارعا دون يأس، حتى أجابت بعد إباء.

فرد يونس: في هذا ما يبرئ ذمتها من المشاركة في دم قرينها، إذ لو كان الأمر عن اتفاق ما طالبت مدة ترملها هكذا، ثم هي معذورة حين استجابت للأمبراطور بعد أربع سنوات.. إذ لم تكن تستطيع أن تنجو من شره إذا عاندت، وفي مكنة الأمبراطور أن يعلن موافقتها دون أن ترضى، ويعقد القران، ويقيم حفلات الزواج فتصبح أمام الأمر الواقع، ولا تجد بدا من

الاستسلام، لاسيما إذا كان بينهما هوى لم ينقطع، همدت ناره فوق السطح عندها، ولم يزل الجمر تحت الرماد، أما هواه فلم يهمل لا فوق السطح ولا تحت الرمال.

وانتقل الحديث إلى منصور فقال:
لقد بهرت «مهر النساء» الدولة بذكائها المفرط، لأنها حين أصبحت الأمباطورة لم تركز إلى الانزواء في حجرات القصر، كمن سلفها من الزوجات، ولكنها شاركت مشاركة حقيقية في أعباء الحكم فكانت المستشار الأول لولي الأمر، ودرست شئون الدولة جندا ومالاً وإدارة، وعرفت كل ذوي المناصب العليا، وعقدت معهم الاجتماعات، وضربت النقود باسمها على إحدى الوجهتين، والوجهة الثانية «باسم جهانجير» وما تم ذلك لأمباطورة في الهند، وقد أراد الأمباطور أن يمنحها لقب «نور جهان» تقديراً لمنزلتها ومعناه «نور العالم» بأجمعه، وكانت الزوجات السابقات للباطرة بمنح لقب «نور محل ببجوم» أي نور القصر، وأين القصر المحدود من الدنيا جميعها، وقد وقع الأمباطور في محن سياسية دامية. فكانت «نور جهان» صاحبة الموقف الأول في إنقاذه، تعرض مرة للأسر على يد عدوه «محبط خان» إذ قبض عليه وهو في حاشية صغيرة لم تستطع حمايته، وعلمت «نور جهان» فقادت الجيش لإنقاذ الأمباطور، وأرادت عبور النهر، فوجدت «محبط خان» قد أزال الجسور ليقف النهر الواسع حائلاً دون الصدام، حتى تنضم إليه جيوش المعارضين من أعداء «جهانجير» وفوجئت «نور جهان» بالواقع الصعب، فأصرت على أن

يركب الجنود الفيلة لتعبر بهم إلى الجانب الثاني، وتقدمتهم جميعاً، فركبت فيلها المدرب، وشقت عباب النهر وجعلت السهام تسلط عليها من جيش «محبط خان» حتى أصيب حشد كبير من جيشها، ونفرت الفيلة، وغرق من غرق، وأصيبت «نور جهان» بسهم في ذراعها، فلم تكثرت بالدم المنزوف وصممت على الوصول وتشجع من حولها بإقدامها، فزحفت الفيلة وراءها إلى الشاطئ فلما بلغته كان الإنهاك قد بلغ منها أعظم مبلغ، كما كان الجند في اضطراب، وبليلة فلم يستطيعوا المقاومة، ورأت أن تستسلم لمحبط خان الذي كان قائد الجيش الأمباطوري من قبل، فرأى أن يضمها إلى زوجها، ولكن تحت ملاحظته، فأظهرت الاقتناع، ثم دبرت أمراً خطيراً، حين أظهرت شقاقها لزوجها، وجعلت تنتقده علانية، حتى ظن «محبط خان» أنها ستفارقه مطلقاً، فأخذ يتودد إليها في لباقة، وهي تزداد في نفورها الظاهري من «جهانجير» فبسط لها من النفوذ، وجعل الضباط والقادة تحت إشارتها، تترأسهم كما كانت في قصر دلهي، وبدائها استطاعت أن تؤلبهم على القائد المغتصب، فثاروا به في فجاءة لم يتوقعها، ونجا الأمباطور الأسير وعاد إلى مقر حكمه ظافراً منتصراً بمكيدة «نور جهان»

عادت نور جهان إلى دلهي أكثر ما تكون بأساً، وأعز سلطاناً، ففضلت أن تصرف بعض وقتها في المسائل الخيرية ذات المغزى الإنساني، فأنشأت جماعة لرعاية الأيتام، وجماعة ثانية للإشراف على تجهيز الفتيات الفقيرات عند الزواج، وجماعة ثالثة لتعليم بنات

جنسها مسائل الاقتصاد، والدربة على الحياكة والتطريز، وما يخص المنزل من مهام وقد ذهبت مع زوجها وجنوده في رحلة صيد بالغابة، راكبة فرسها النشيط، ففوجئ القوم بأربعة أساد يبرزن أمامهم فجأة، فذعروا ذعراً شديداً، ولم يتماسك بعض جنود الحرس فولوا الفرار، ولكن نور جهان أعدت سهامها لتصوبها في براعة إلى عيون الأساد، وسددت السهام في جأش رابط، حتى أصابت مرماها، وصرعت الأساد الأربعة أسداً بعد أسد، فاجتمع حولها الحرس مندهشين بروعة ما أبدت، إذ فاقت بجهدتها الخارق أشجع الرجال.

وكان ما لا بد أن يكون، فقد مات زوجها جهانجير وورث العرش نجله الأكبر من غير أولادها، فآثرت الاعتزال راضية، وتفرغت للأعمال الخيرية، والقراءة الثقافية، ثم بنت لنفسها مقبرة تقرأ أمامها القرآن كل يوم، وأرسلتني لأغسل الكفن المنتظر بماء زمزم ودوى صوت المؤذن فهرع الحجاج إلى بيت الله ملبين مهللين.



أرنبو إلى الدنيا وأمتنع
لم يبق للأمال متسع
بالأمس أشواقي تدمرني
واليوم لاشوق ولا طمع
لن أبلغ الخمسين لكن الحد
لادثات لها منطق.. يضع
عشرون عاماً أرتجي حلماً
وعلى مدى الآفاق منتجع
عشرون والدنيا تلاحقني
فأطير للصبوات أندفع
عشرون.. لا هم ولا كدر
وأخالها صفواً فلا فزع
عشرون لكن أينأ - أسفاً -
يحتاط للأخرى فيمتنع؟
لكأنها الذكرى وإن لها
أن تلجم اللاهي فيرتدع
فالـيوم يأتي من ينبهني
أن أجتدي حذري فلا أدع
اليوم يقتلعونه كبداً
وغداً.. لعل القلب يقططع



كل التي تبغون ضائعة
كل الذي تعطون مرتجع
وعلى مدى الطرقات ضارعة
كفي.. وحيناً خائف فزع
لم يبق في الدنيا مؤملة
إلا وفي خفقانها الوجع
لم يبق في الدنيا وحق لها
أن تقتضيني بما يردي وما يسع
يا أيها البانون حسبكم
أن الذي تبنون ينصددع

زخرف الدنيا



للدكتور: عماد الدين خليل



سجادة طويلة

للشاعر الأندونيسي: توفيق إسماعيل
ترجمة: أحمد مصطفى بشرى

ثمة سجادة طويلة مفروشة
من قاعدة المهد
إلى حافة قبري القادم
ثمة سجادة طويلة مفروشة
أركع وأسجد عليها..
يتخلل ذلك فترات
أطلب فيها رزقاً وعلماً
وأقدر مسافة الشوارع يوماً
وفور ما أسمع الأذان
أعود لأخر ساجداً
ثمة سجادة طويلة مفروشة
أخضع وأركع وأسجد
ولا تنفك جبهتي لاصقة بها
ويبقى لساني رطباً
بذكرك يارب!.

إن التي ترجون ذاهبة
وذاهب ما حباه الكد والجشع
وإن جوهرها هذا تناقضها
وإن أضدادها الطغيان والورع
وليس ثمة في الدنيا أخو أمل
إلا وغاية شوطه الشيع
وليس ثمة من غاد ومرتحل
إلا وفي نزواته الهلع
فما لأوهامنا تمضي مصعدة
ونحن نجتازها خفضاً ونتضع؟



يا أيها الماضي.. لبغيته
ركضاً وما يدري متى يقع!
يا أيها المفتون.. زخرفته
عبث.. وخلف بريقه الصرع
يا أيها الساري وما اتسخت
عباءة قد طواها الموت والنزع
أواه لو تدري مخادعة
بأن حبل المين ينقطع
وأن لذاتها شرك لأهتها
وأن غيم أمانيتها سينقشع
وأن كل أخي دنيا معطرة
أعطافه سيعاف الدار ينتزع
وأن مأساتنا أنا نغادرها
حُفياً.. فلا نعل ولا شسع
مللمين بأكفان ممزقة
ومودعين فلا أهل ولا شيع
وليس ثمة إلا الله موعداً
وباطل ما بناه الوهم والجزع
وليس ثمة إلا (هو) وحق له
أن يستقل بما يعطي وما يدع